دراسات

الصهيونية واليسار الفرنسي

عبد الكبير الخطيبي

ان العامل المشترك الذي يجمع مختلف النصوص الذي ضمها (الخطيبي) * في كتابه « النقد المزدوج » (دار العودة – بيروت) هو خضوعها لاستراتيجية واحدة ، لكنها تعمل في واجهات متعددة ، تلك هي استراتيجية النقد المزدوج التي تحيا على هامش الميتافيزيقا فترمي الى تفكيك المفهومات الاساسية التي تقوم عليها الفلسفة التقليدية كمفهوم الكلية والاصل ، والهوية والوحدة .

وفي نص « الصهيونية واليسار الغربي » يبين الخطيبي ان اليسار الاوروبي لا يخرج ، بصدد المسألة اليهودية ، عن الميتافيزيقا ولا يتحرر من مفهوماتها . لذا فهو يدخل معه في حوار ليفكك مفهومات الهوية والاصل وتلك المفهومات التي تقوم عليها الايديولوجية الصهيونية . فليست الصهيونية في نظر الخطيبي الا عودة تهكمية للوعي الشقي ، وانفصالا لا متناهيا يحيا على امل العودة الممكنة نحو الذات واسترجاع الهوية العمياء والأصل المفقود ..

ولتوضيح هذه الاستراتيجية طرحنا بعض الاسئلة على المؤلف ،

● عندما ظهر كتاب (Vomito Blanco) سنة 1974 كان حوارا مع اليسار الاوروبي حول المسالة اليهودية . فهل هناك ما يبرر نقله الى العربية في نظرك ؟ ولمزيد من الايضاح هل وظفت في هذا الكتاب بعض المفاهيم التي تعتقد انها ضرورية لاعادة النظر في المسالة اليهودية ، وبالتالي فهي تصلح للقارىء العربي كما تصلح لغيره ، وليست وليدة ظروف مؤقتة ؟

□ ينبغي ان نذكر بأن هذا الكتاب ألف بعد حرب 1967 ، وأعني في فترة بعينها ، أي بعد الهزيمة التي منيت بها القضية العربية وبعد الضعف الذي حل باليسار العربي ذاته . لقد تمخض عن هذه الهزيمة ، كما هو معروف ، نتائج وخيمة لكنها لم تكن كلها نتائج سلبية ، بل كانت إيجابية كذلك ، فقد سمحت للثورة الفلسطينية

* راجع « النقد المزدوج » لعبد الكبير الخطيبي دار العودة ، 1980 .

بتطوير مواقفها وتحديدها ، وقد واجه الفلسطينيون آنئذ مسألة هذا الانهزام ودلالته الأيديولوجية والاستراتيجية ، وكان عليهم أن ينحتوا من أجل تحررهم نموذجا جديدا مغايرا لذلك الذي يسود العالم العربي ، حيث كان يعكس ايديولوجيات لا تنسجم فيما بينها . والأدهى من ذلك أنه كان ترديدا للنماذج العالمية السائدة وخصوصا النموذج الأمريكي والسوفييتي ، وحتى الأوروبي .

لم يكن هذا الانهزام إذن ذا دلالة سلبية من الناحية التاريخية . اما من الناحية النظرية فكان ينبغي على النظرية أن تواكب التطورات التاريخية ، لكي لا يقتصر الكتاب على مجرد ترديد شعارات جوفاء ، لقد كانت المواكبة تعني أساسا الارتقاء بالنظرية الى مستوى هذه القضية ، كان علي أن أكتب سجالا عنيفا في مستوى عنف القضية ، كان على عنف النص أن يساوق العنف الذي تعرفه ساحة المعركة ،

كنت أرتئي إذن ، وأنا أقدم على هذا العمل ، ضرورة اللجوء الى نظريات ومفاهيم كان بامكانها أن تساعد على النفاذ الى عمق المسألة الفلسطينية ، وعن طريقها ، الى مسألة العلاقة بين اليهودية والاسلام ، بين العرب واليهود .

والحال أن اليهود أنفسهم قد لعبوا دورا نظريا أساسيا في الغرب ، فكان منهم كبار المفكرين أمثال (سبينوزا) وآنشتين وفرويد وماركس وآخرين غيرهم .

كان على تنظير هذا الصراع أن يحدد المواقع الاستراتيجية التي ينطلق منها . لذا إخترت مواقع نظرية ثلاثة هي : المسيحية ثم ماركس وفرويد .

لقد تساءلت أولا عما تمثله المسيحية بالنسبة لليهودي . ماذا كان المسيح من حيث هو مفهوم ميتافيزيقي نظري في عين اليهودي ؟ فلربما كان هو مفهوم الخيانة ذاته ، بحيث يكون المسيح ذاك اليهودي الذي « خان » شعبه فأقام أخلاقه على هذا المفهوم ، لقد إتخذت بنوع من السخرية مفهوم الخيانة ، إتخذت المسيح كمفهوم خان الديانة اليهودية ...

الموقف الثاني الذي إنطلقت منه هو موقع ماركس باعتباره يهوديا معاديا للصهيونية وقد كان لذلك نتائجه ، سواء بالنسبة للأنظمة السياسية في العالم ، والعالم العربي على الخصوص أو عند اليسار الذي إستلهم الأيديولوجية الماركسية .

الموقف الثالث : هو التحليل النفسي وفرويد ، وهو أيضا يهودي كما نعلم .

لقد تعمدت إنتقاء بعض النظريات وأهملت أخرى مثل نظرية (هايدغر) الذي لم يكن يهوديا ، لكنني فضلت أن أنطلق من النظريات التي نمت في حضن اليهودية والتي في إمكانها أن تساعدنا على فهم الصراع . وهكذا خلصت الى مفهوم الوعي الشقي .

إن المسيح نبي ، ولكنه منظر أيضا . منظر عملي كما يقول (غرامشي) . وهذا شأن ماركس ، إنه منظر وداعية ايديولوجي ، أما فرويد فهو عالم ومنظر . لقد أحدث هؤلاء الثلاثة إنفصاما ما وقطيعة : المسيح بالنسبة لشعبه والشعب المختار ، وذلك عندما أقام المسيحية على مفهوم الشمولية ، إن المسيح أسس نزعة إنسانية شمولية . وهذا شأن ماركس الذي جعل من الصراع الطبقي محرك التاريخ ، ومن تحرير الطبقة العاملة غاية يرمي اليها تاريخ الانسانية . إن شعار « يا عمال العالم إتحدوا » شعار شمولي عالمي . أما فرويد فانه يهودي ملحد مثل ماركس ، ولكنه كان في موقف أكثر تعقيدا باعتبار أنه لم يعتنق الصهيونية قط . إن التحليل النفسي عرف مجده في (فيينا) وإنطلاقا منها ، وذلك في أواخر القرن الماضي ، وفي نفس الحقبة ونفس الموقع إندلعت الصهيونية . لقد نمت الصهيونية في موازاة مع التحليل النفسي ، وقد التقت طرقهما في بعض الأحيان ، فذهب البعض الى تبرير الصهيونية وإقامتها على نظرية التحليل النفسي ، وبالرغم من كل هذا فان فرويد ذاته لم يعتنق الصهيونية ، غير أنه لم يكن مناهضا لليهود . وما كان يهمني أنا هو كيف فكر فرويد في المسألة اليهودية .

لقد تعرضت نظرية فرويد لرفض شديد من طرف الصهاينة . ذلك أن (فرويد) خلخل مفهوم الواحد فذهب الى أن هذا المفهوم مفهوم مصري يرجع لأخناتون كما زعم بأن موسى مصري ، لقد جعله يتمتع بهوية مزدوجة ، فصدع بذلك حنين اليهود وتشوفهم الأسطوري إلى الوحدة . لقد أقحم فرويد الازدواجية والانقسام والتمزق والدياسبورا .

لقد تبينت أن هذا التمزق هو ما كان هيجل يعبر عنه فلسفيا عن طريق مفهوم الوعي الشقي ، فاستعنت بتحليلات هيجل حول هذا المفهوم وإستعملتها بكل حذر علما بأن هيجل مسيحي لم يكن يريد أن يفهم تاريخ اليهود .

لقد ظهر لي أن مفهوم الوعي الشقي مفهوم أساسي يعبر عن الانفصال اللانهائي للكائن ، وإن اليهودي هو ذاك الكائن الذي يعيش هذا الانفصال اللانهائي ...

تلك كانت المواقع النظرية التي إنطلقت منها في كتابي حول المسألة اليهودية ، ولنعد الآن للاجابة عن سؤالك حول ضرورة نقل الكتاب الى اللغة العربية وإدخال هذه

المفاهيم الى العالم العربي ، إنني أرى أن هذا لايخلو من فائدة . وذلك لأننا عندما نصارع في المستوى السياسي ، ما نزال نستعمل حججا لا تقوم على دعامة قوية ، ونردد شعارات وتحليلات سطحية . إن الحوار مع الماركسية يبدو لي من الأهمية بمكان باعتبار أنه يطرح مسألة هوية الفرد وعلاقتها بالصراع الطبقي وهي مسألة غالبا ما تتعرض للاهمال من طرف الحركات السياسية في العالم العربي ، حيث يطبق نموذج عام للصراع الطبقي ، لا يسمح للفرد بأن يعيش هذا الصراع بالفعل . لذا إستعملت في كتاب آخر مفهوم المناضل الطبقي لكي أنبه إلى أن الفرد المناضل ينبغي أن يعيش نضاله دون أن يرمي به في مستقبل موهوم . إن الصراع الطبقي الذي نتحدث عنه في العالم العربي لا ينفصل كثيرا عن الميتافيزيقا ، فهو يلجأ الى مفهوم الفاشية فيرمي بالمستقبل في خارج مجهول .

تكفي الاشارة الى أهمية النص الماركسي وضرورة طرح الاسئلة عليه ، إنطلاقا من إشكاليات محلية . وباستطاعة المفكرين العرب أن يسائلوا النص الماركسي إنطلاقا من قضايا عربية ومن زوايا عربية .

وهذا يصدق أيضا على فرويد . وحتى الآن يتجنب أغلب المفكرين في العالم العربي الحديث عن فرويد وعن التحليل النفسي وهم يعترفون بأهميته ولكنهم لا يعتبرون أنه يعنيهم هم بالذات . وهكذا يتم الخلط في التحليل النفسي بين طريقة العلاج ، وهي تقنية يمكن تأويلها وتكييفها حسب المواقع واللغات والبلدان . ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هذه الطريقة نفسها تدعونا الى الاصغاء لآلام الغير . ولهذا أهميته . باستطاعتنا إذن أن نطبق هذه التقنية ونكيفها حسب الظروف . ولست أرى مانعا في هذا ، لماذا لا نصغي لألم الغير ؟ لماذا لا تتعدد الآذان المصغية لهذا الألم في العالم العربي ؟

ثم هناك الى جانب هذه التقنية فكر فرويد ، لا أقول نظرية ومعرفة وإنما طريقته في تأويل اللاشعور وهي تصدق في مجالات متعددة سواء في الفن أو في العلم أو في الفلسفة مثلما أن الماركسية تأويل للقوى اللاشعورية التي تهيمن على التاريخ . إن إهمال اللاشعور ورفضه في العالم العربي شيء له دلالته ، كما له جذوره التي تفسره . وباستطاعة التحليل النفسي أن يكشف عن المكبوت في الوجود العربي ، وأن العرب يشعرون بخطورة التحليل النفسي غير أن الكائن العربي يهاب الحديث عن نفسه وهو يفضل الحديث عن الغير أو الصمت ...

ولنعد الى المسألة الصهيونية لنقول بأنني لم أدخل هذه النظريات لأول مرة ، فهي معروفة في العالم العربي غير أن التأويلات تتباين وتتفاضل فيما بينها .

● **ومع ذلك فانت تستغرب لكون فرويد فضل موسى على إبراهيم ، فتقترح مفهوم عقدة إبراهيم لتطعيم ما قاله فرويد حول موسى واليهودية .**

□ لقد أنشأ فرويد مفهوم عقدة أوديب ، وقد تحدث بعض علماء التحليل النفسي فيما بعد عن عقد أخرى . ويظهر أن فرويد يلح على أهمية هذه العقدة ، فهو يعطيها مكانة قصوى في تحديد نشأة الشخصية ويرى فيها مصدرا للصدمات والصراعات التي تعرفها الشخصية فيما بعد . وأنا لا أريد أن أدخل في جدال حول أهمية هذه العقدة وما إذا كانت تشكل القانون الأساسي لتفسير مختلف الصدمات وهناك على كل حال من يذهب هذا المذهب من علماء التحليل النفسي . غير أن هناك من قام ضد هذا الموقف ونذكر كتاب (دولوز وغواتاري) ضد ـ أوديب ، فقد بينا أن هذه العقدة حكاية لا تخرج عن المؤسسات الاجتماعية المعروفة وأن فرويد يريد ان يقحم عن طريقها كل المشاكل داخل مؤسسة الاسرة فيعيد كل الأمور الى نظام واحد ويخضعها لقانون أساسي هو قانون الأسرة .

لم أكن أرمي أذن لمناقشة فرويد بصدد أهمية عقدة أوديب . لقد أوليت إهتمامي لكتابه (موسى والتوحيد) . ولا ينبغي أن ننسى الضغوط التي لقيها فرويد من طرف بعض اليهود الذين حالوا بينه وبين نشر هذا الكتاب . إن ما لفت إنتباهي هو أن فرويد في هذا الكتاب نسي صورة أكثر قدما وأهمية من صورة موسى وتلك هي صورة إبراهيم أول من أسس شريعة الكتاب المقدس . كيف أمكن لفرويد أن ينسى هذه الصورة التي هي حوار مع الله . وفي هذا الحوار نجد شريعة التضحية والفداء ، وفي النهاية مسألة الخطيئة والاثم وإستحالة تطبيق الشريعة دون هذا الاثم . لم يول فرويد إذن إهتماما لهذه الصورة سواء في تفسيره لأصل الديانة أو في تفسيره الرمزي لنسبه هو . إنني أميل الى الاعتقاد ، على العكس من ذلك ، إن مفهوم الشريعة في الكتاب المقدس سابق على التفسير الذي يعطيه فرويد ، وإن فرويد نفسه إبراهيمي من غير أن يعلم ، لذا أدخلت مفهوم عقدة إبراهيم ، لا لتفسير القانون الأسروي كما فعل فرويد ولكن لتفسير نشأة قبيلة و« امة » بكاملها . فهذه العقدة في نظري هي المصدر الرمزي للشريعة الموسوية . إن ما كان يهمني إذن هو أن أحاور التحليل النفسي ، وأطرح عليه أسئلتنا نحن لفتح طرق جديدة نحو البحث .

● يظهر ان ما تقوله انت عن ماركس هو ما قاله (دولوز وغواتاري) عن فرويد . فماركس في نظرك (ص ١١٥) « لم يأبه لا باب حي ولا بميت » . إنه بدد بوقاحة غير معهودة النظام الذي جعلته الانسانية يتبلور في المؤسسات الاجتماعية والملكية والنقود والأسرة والدولة « فهل يمكن ان نقول ان ماركس هو أساسا مفكر للاختلاف ؟ »

□ يجب أن أوضح هذه النقطة . يظهر أن ماركس أساسا مفكر جدلي ، وأنه تغذى على الجدل الهيجلي وعن طريق هيجل ، على الجدل اليوناني ، فهو ينتمي إذن لتقليد تاريخي عريق يمتد إلى الفلسفة اليونانية . وقد إستطاع هو أن يحول الجدل إلى أداة نظرية وعلمية وأن يرقى به إلى مستوى الثورة التاريخية لتحويل البنيات السياسية فالاجتماعية على المدى البعيد . إن ماركس إذن مفكر جدلي ، وهو ذاته يقدم نفسه كذلك . إلا أنني حاولت أن أذهب أبعد من هذا لأننا لا ينبغي أن ننسى أن ماركس أقام نظرية فلسفية حول التاريخ وحول التشيؤ والاغتراب ، فكان بذلك مفكرا للاختلاف . ولتوضيح ذلك ينبغي أن نعلم أن الجدل صراع بين الايجاب والسلب وأنه بالتالي يولي الأهمية لعمل السلب والنفي ، أي للصراع الطبقي ، فهو إذن جدل الفوارق والاختلافات . إن ماركس مفكر للاختلاف وبالضبط للاختلاف الجدلي . وهذا أمر عظيم . ونحن ينبغي أن ندخل الجدل في العالم العربي لأنه سيغذي الفكر السياسي والاجتماعي .

إن ماركس إذن يشكل إمتدادا لفكر الاختلاف وهو فكر عريق في القدم ، إلا أنه إلى جانب هذا ، يظل أيضا تحت رحمة الميتافيزيقا وتحت تهديد فكر غائي ، صحيح أنه ينظر إلى التاريخ في إنفصاله إلا أنه يرى فيه إستمرارا وتقدما . إنه أنماط إنتاج ، ولكن أيضا إنتقال بين تلك الأنماط ، هنالك إذن مجموعة من المفاهيم عند ماركس تظل تحت رحمة الميتافيزيقا إن لم نعاملها بحذر وإنتباه . وهذا ما وقع بالفعل عند بعض الماركسيات التي جعلت من الصراع الطبقي جدلا بين الفقر والغنى ، بين الشر والخير وبالتالي صراعا مانويا بين قطبين . ها هنا نظل تحت تهديد الميتافيزيقا ، غير أنني أعتقد أن فكر ماركس شديد التعقيد وإنه فتح أبوابا ينبغي إقتحامها ودروبا ينبغي الاستمرار فيها . وباستطاعة فكر الاختلاف أن يستلهم المفاهيم الماركسية الأساسية حول الصراع الطبقي والاستلاب والانفصال والتاريخ

● فيما يتعلق بعلاقة ماركس بالمسالة اليهودية ، انت تشير في كتابك لما يقوله (مسراهي) حول ماركس باعتباره مناهضا كبيرا لليهود فترد بانه لم يكن يرغب في الانتحار والقضاء على الشعب اليهودي . فكيف عاش ماركس في نظرك هذه الازدواجية بين واقعه كيهودي وبين فكره كمفكر للاختلاف ؟

□ صحيح أن موقف ماركس لا يخلو من إلتباس . فاذا ما عمم نظريته حول الصراع الطبقي فان الأقليات ستخضع هي أيضا لجدل التاريخ . فداخل الأقلية اليهودية كانت هناك فوارق ، وكانت هناك برجوازية وبروليتاريا . وقد هاجم ماركس النظام البنكي والتجاري الذي كانت تهيمن عليه هذه البرجوازية . لقد « خان » ماركس إذن هذه الأقلية البرجوازية اليهودية ، وهاجمها بعنف شديد . وكان بامكان اليهود أن يردوا عليه : كيف أمكنك أنت اليهودي أن تحاكمنا نحن اليهود . أنت منا وليس بامكانك أن تعاملنا كما تعامل باقي البرجوازيات .

انني أعتقد على العكس من ذلك ، إن ماركس لم يكن معاديا لليهودية ولا مناهضا لليهود . صحيح أنه هاجم البرجوازية التجارية والبنكية ، ولكن لا ليعادي اليهود بل ليقيم نزعة إنسانية شاملة مثلما سيقول بعض الماركسيين اليهود فيما بعد أمثال (دويتشر) . ولكن يظل السؤال قائما : كيف حل ماركس مشكل هويته اليهودية ؟ إنه أعلن إنفصاله عنهم ، ولكن يبقى علينا أن نفسر كيف إرتد ماركس ضد اليهودية ؟ لقد وضعت معالم الجواب عن هذا السؤال ، ولكن ربما وجب تحديده تحديدا أكثر .

● **أنت تتهم الأيديولوجيات السائدة في العالم العربي إنها تردد صدى اللغة الابراهيمية وتلح على مفهومات الخطيئة والذنب . وربما يبدو من إلحاحك على مفهوم الوعي الشقي والشعور بالذنب إنك تستعمل نفس المفاهيم وقد يظهر للقارىء لأول وهلة انك تحول الصراع الى جدال ديني .**

□ أوضحت هذا في مقدمة الكتاب . لقد إعتدنا أن ننظر لهذا الصراع في جانبه السياسي . وقد ذهبت أنا أبعد من هذا وإرتأيت أن للمسألة اليهودية جنورا لاهوتية وميتافيزيقية عريقة .بحيث حتى إن حل المشكل سياسيا وأقيمت دولة متعددة الأديان يبقى السؤال قائما ، من هو اليهودي بالنسبة للعربي والمسلم هل هو يهودي القرآن أم إن هناك يهوديا عاش في التاريخ وينبغي إعادة تحديده الآن وهنا . لقد ألححت على المسائل الميتافيزيقية والأخلاقية لأنني أعتقد أن اليهودي والعربي تجمعهما عوامل مشتركة متعددة وهذا منذ الكتاب المقدس . علينا أن نفكر في كل هذا ، في الحرب التي بيننا وبين اليهود وكذلك في حوارنا معهم ، حوارنا الذي يمتد الى العهود القديمة والذي ما زال مستمرا . فأنا لم أرد الصراع الى مجرد الجدال الديني ، وإنما حاولت النظر إليه في جنوره التاريخية والأخلاقية والفلسفية . هذا مع العلم بأن هناك تحليلات تاريخية جيدة حول المسألة وربما كانت مستوفية وأنا حاولت أن أطرق المشكل فيما وراء الطرح الأيديولوجي والسياسي وأرى ضرورة توضيح علاقتنا باللاهوت وإلا فسنظل عاجزين

عن فهم الثورة الايرانية الآن ، إذا أمكن أن نتحدث عن ثورة . فما مكانة الديانة واللاهوت في ثورة الخميني ، هل اللاهوت ما زال ينطوي على قوة ثورية لم تستنفد بعد ولم تتجاوز . ليست هذه المسائل إذن ثانوية ، كل ما في الأمر أننا إعتدنا التحليلات الأيديولوجية والسياسية .

● في نهاية هذا الحوار . حبذا لو حدثتنا قليلا عن مصير كتابك سواء عندما عزمت على نشره في فرنسا او عندما نشر ووزع .

□ لقد لقي الناشر ضغوطا عند عزمه نشر الكتاب ولكن موقفه كان شريفا وقد قال لي بأنه لم يكن ليتوانى عن نشره حتى ولو كان حول (إيرلندة) ، وعلى كل حال فقد كان الناشر منطقيا مع نفسه إذ سبق له أن وقف فيما قبل إلى جانب الثورة الجزائرية .

أما عندما نشر الكتاب فقد قوبل باستياء كبير من طرف الأوساط الصهيونية . وقد نعتتني جبهة اليهود في فرنسا بالاجرام وشتى أنواع الشتم . ولدي الآن أعداء رسميون في فرنسا على أثر نشر الكتاب . والمؤسف أن الصحف اليسارية ذاتها كانت تعامل الكتاب بحذر وتخضعه لنوع من الرقابة . فمجلة (بوليتيك هيبدو) مثلا حذفت جزءا من مقال حول الكتاب .

اما في الارض المحتلة فقد وزع الكتاب في البداية ، لكن بأعداد محدودة وقد تلقيت بعض الرسائل في شأنه من هناك . وفيما بعد منع الكتاب وأصبح يتداول على شكل مطبوع بالآلة الكاتبة .

أجرى الحوار .

« عبد السلام بن عبد العالي »